دعوة نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام

مكة المكرمة أشرف بقاع الأرض وأطيبها وأحبها إلى الله تعالى وإلى قلب كل مؤمن في كل زمان ومكان إلى يوم الدين، وفيها أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله تعالى، حيث أمر الله تعالى نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام أن يُقيمه ليكون قبلة المؤمنين ومهوى أفئدتهم. دل الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام على مكان بناء بيته، فأحضر الرضيع وأمه في ذلك المكان، وعاد إلى بلاد الشام مُستودِعهم الله تعالى.

وحين نفد منهما الماء والطعام، وأشتد العطش والجوع بالرضيع وأمه، ترددت الأم على الصفا والمروة، علها تجد عابر سبيل معه شيء من الماء والطعام. ولكن دون جدوى، وحين أشتد الخطب، ناداها جبريل عليه السلام: لاتخافي الضيعة، هاهنا بيت لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، ولن يضيع الله أهله، ثم ضرب الأرض بجناحه ففاضت مياه زمزم وعُمرت تلك البقعة بالساكنين .كبر إسماعيل. وجاء الأمر من الله تعالى ببناء البيت العتيق ، فرفع إبراهيم وإسماعيل قواعد البيت. وتوجه إبراهيم عليه السلام إلى الله تبارك وتعالى بالدعاء. مبيناً هدف سكنى ذريته ذلك الوادي بأن يقيموا الصلاة لرب العالمين. بما فيها من الخير والفلاح والفوز والنجاح وسعادة الدنيا والآخرة، وبما فيها من اطمئنان القلوب بمناجاة رب العالمين، ولأثرها الكبير في استقامة السلوك والبعد عن الفحشاء والمنكر، إضافة إلى حفظ الدين بكامل ما فيه، وأن تكون تلك الأسرة قدوة للمسلمين في جميع أنحاء الأرض، وفي كل زمان ومكان تمسكاً بدين الله تعالى وخدمة حُجاج بيت الله الحرام، لتتعلق بهم قلوب المسلمين. تُحبهم وتُجلهم وتُقدرهم، وستُجبى إليهم ثمرات الأرض تحقيقا للدعوة المباركة، ليكونوا من الشاكرين لنعم الله المحافظين على دين الله، المؤدين للصلاة حق الأداء.

عهد إبراهيم الخليل عليه السلام

ها هو إبراهيم عليه السلام وقد أسكن ذريته بوادٍ غير ذي زرع في البقعة التي سيبني فيها أول بيت وضع للناس في الأرض لعبادة الله تعالى، ودعا ربه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ سورة إبراهيم (٣٧). ذلك هو الهدف الأسمى من تلك السُكنى، أن يقيم الناس دين الله تعالى في قلوبهم وفي سلوكهم وأن يكونوا قدوة للناس أجمعين في الالتزام بدين الله تعالى وبإقامة الصلاة خاشعة لله تعالى لأنها رأس العبادات البدنية.

واستجاب الله تعالى دعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام فجعل البيت الحرام موطن الركن الخامس من أركان الإسلام وهو عبادة الحج، واستجاب إبراهيم لأمر الله تعالى، فأعلن دعوة التوحيد على الملأ وأن البيت الحرام هو منارة التوحيد، طهره الله تعالى من الشرك والأوثان، يجدد عنده الطائفون إيمانهم بالله تعالى وحده لا شريك له، ويجددون العهد معه تعالى ليستقيموا على دينه عز وجل، فيزدادون إيماناً وصلاحا، ويترددون على البيت الحرام مرة بعد أخرى إلى يوم الدين، وذلك قوله تبارك وتعالى ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ البقرة (١٢٥). فما أبهى منظر حجاج هذا البلد الحرام وقد لبسوا لباس التقوى، وعظموا بيت الله الحرام.

بناء البيت العتيق

أمر الله تعالى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو في بلاد الشام أن يبني أول بيت وضع للناس في الأرض لعبادة الله تعالى، ولم يكن يدري أين يكون البناء، فسار جبريل به وبزوجه هاجر وابنه الرضيع إسماعيل ينقله من مكان إلى مكان وكلما مر بقرية قال لجبريل: «أهاهنا أمرت يا جبريل» فيقول له جبريل: أمض، حتى قَدِمَ به أرض مكة قرب ربوة مرتفعة في ذلك الوادي فترك عندها هاجر ورضيعها إسماعيل وأنطلق عائداً إلى بلاد الشام يدعوا الله تعالى ووكل أهله إلى الله تعالى، فقالت هاجر: «أين تذهب يا إبراهيم وتتركنا في هذا الوادي» ثم قالت له: «آلله أمرك بهذا»، قال: «نعم»، قالت: «اذهب فإنه لن يُضيعنا»، ونفذ الماء والطعام وجف لبن الأم لانعدام الطعام، وتضور الرضيع جوعاً فأخذت تجري بين الصفا والمروة و تقف على كل منها تنظر يميناً ويساراً فلا ترى أحداً حتى كاد إسماعيل يُشرف على الموت، فسمعت صوتاً في السماء يقول لها «من أنت؟» فقالت «أنا أم إسماعيل ولد إبراهيم» فقال لها «لا تخافي الضيعة فإن هاهنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ولن يُضيع الله أهله» فعادت مسرعةً لتطمئن على إسماعيل وإذا بماء زمزم يفور من الأرض، ثم مر الناس بذلك الوادي يلتمسون الماء فبدأت السُكنى الأولى لمكة المكرمة وشب إسماعيل عليه السلام، وجاء إبراهيم ذات مرة ليتفقد ابنه وأمه فأمره الله تعالى ببناء الكعبة المشرفة، فقال لإسماعيل: «يا بني إن الله أمرني بأمر» فقال له إسماعيل: «أطع أمر ربك» فقال: «أتُعينني؟» قال: «نعم» فقال إبراهيم: «إن الله أمرني أن أبني له بيتاً ها هنا»، فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ الحج (٢٦)، وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة (١٢٧- ١٢٨)، وهانحن اليوم من ذرية إبراهيم وقد أسلمنا وآمنا فلنعرف لهذا البيت الحرام حقه ولنكن قدوة للعالم كله في التقى والصلاح وإقامة الصلاة كما يُحب ربنا ويرضى، فتلك هي المهمة الأولى لمن أكرمه الله بسُكنى هذه البلاد ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

قِبلة كل المسلمين

لقد شرف الله تعالى مكة المكرمة وما حولها من الحرم الشريف فجعلها أكرم بقاع الأرض وأعظمها عند الله تعالى؛ وذلك منذ خلق الله السموات والأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها حيث احتضنت أول بيت أُقيم على وجه الأرض لعبادة الله تعالى وهو الكعبة المشرفة التي يطوف بها المؤمنون إلى يوم الدين يؤكدون أنهم ملتزمون بدين الله تعالى متمسكين بشرعة ويقيمون الصلاة على وجهها الأكمل وإليها تتجه قلوب المؤمنين في شرق الأرض وغربها على اختلاف أجناسهم وألسنتهم وألوانهم، في كل صلواتهم، وما في الأرض كلها بقعة أحب إلى قلوبهم ولا أعظم قدرا منها. فهي قبلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي القبلة الوحيدة للمسلمين بنص القرآن الكريم بعد أن كان المسجد الأقصى قبلةً مؤقتةً للمسلمين قرابة سنة ونصف من بداية الهجرة النبوية، ثم جاء الأمر الرباني في كتاب الله تعالى وفي عدة آيات، فقال جل من قائل: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾البقرة (١٤٤). وفي آيةً أخرى أكد الله تعالى ذلك فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾البقرة (١٤٩)، وفي آية ثالثة كرر الله ذلك فقال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾البقرة١٥٠. هذا الشرف العظيم لأهل هذه الديار المقدسة يستدعي من سكان الحرمين الشريفين أن يحافظوا على صلواتهم أشد المحافظة، حفاظاً على قدسية المكان الذي شرفهم الله تعالى بسكناه ورعايته وإليه ترنو قلوب المسلمين.

صلاة بمائة ألف صلاة

في التجارة يقطع التجار آلاف الأميال في سبيل البحث عن مردود أفضل وربح أكبر، وفي الدراسة يمضي الطالب الليالي الطوال في التحصيل الأفضل لتحقيق مستقبل أفضل، وفي الوظائف يبذل الموظف جهده ليحظى بالترقيات وليزداد من الخيرات وليس في ذلك ضير. وكله مطلوب طالما كان حلالا، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف؛ كما جاء في الحديث.

وكذلك الحال في الطاعات يستحب التنافس لنيل الدرجات العلى من الجنة، فالصلوات الخمس لها فضلها العظيم وأجرها الكبير عند الله تعالى وكذلك النوافل، وصلاة الجماعة أفضل من غيرها بسبع وعشرين درجة، والصلاة في المسجد فضلها عظيم، فكل خطوة يرفع الله صاحبها بها درجة ويحط عنه بها خطيئةً، ولكنها في الحرم المكي يُضاعف أجرها مئة ألف عما سواها، وفي المسجد النبوي يُضاعف أجرها ألفاً عما سواها في المساجد الأخرى غير المسجد الحرام، وذلك مابشرَ به رسول الله ﷺ المؤمنين حين قال صلوات الله وسلامه عليه: (صلاة في مسجدي هذا «المسجد النبوي» أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه) رواه ابن ماجة وصححه الألباني. فلتكن همة أحدنا أن يحصل على ذلك الأجر العظيم والفضل الكبير كلما تيسر له ذلك، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

أطيب البلاد وأحبها إلى الله تعالى

هذه مكة المكرمة قد خصها الله تعالى بالكثير من الخصائص التي تُميزها عن بقاع الأرض كلها، فقد جعلها الله تعالى ذات حُرمة وتقدير وتعظيم دون سائر بقاع الأرض، منذ خلق الله السماوات والأرض فهي حرام بحرمة الله تعالى، ومامن مؤمن من السابقين واللاحقين إلا ويمتلئ قلبه بحبها وتعظيمها، وإليها حج العديد من الأنبياء قبل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وحتى قبل بنائها كان الأنبياء يحجون إلى مكانها، فامتلأت قلوب المؤمنين في كل العصور بحبها وتعظيمها، وحتى في الجاهلية كانت العرب تُعظمها وتعرف لها قدرها ثم جاء الإسلام وأكد حرمتها لتظل محرمة إلى يوم القيامة.

وفي مكة ولدَ رسول الله ﷺ وفيها شبَّ وترعرعَ، ووضع الحجر الأسود في مكانه يوم جددت قريش بناؤها قبل الإسلام بخمس سنوات، وفيها نزل القرآن الكريم لأول مرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأستمر ينزل فيها ثلاثة عشر سنة قبل الهجرة النبوية، وامتلأ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بحبها، لأنها أقدس بقاع الأرض وأطهرها وأعظمها وأحبها لله تعالى، فبحب الله تعالى لها أحبها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وبتعظيم الله تعالى لها عظمها، وحين أخرجه الكفار منها هاجر إلى المدينة المنورة، فوقف رسول الله ﷺ على مشارفها وقلبه معلق بها وقال صلوات الله وسلامه عليه: (ما أطيبك من بلد وأحبك إليَّ ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك) رواه الترمذي بسند صحيح وصححه الألباني. وقال ﷺ وهو ينظر إلى مكة المكرمة: (والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرْجت منك ما خرجت) رواه الترمذي بسند صحيح وصححه الألباني. فلنعرف لمكة حُرمتها وقدسيتها وشرف السكنى بها.

الصلة بين العبد وربه

لا حياة للإنسان حين يعيش منقطع الصلة بخالقه ومولاه هائم على وجهه لا يعرف للسعادة باباً ولا للراحة طريقاً، ولك أن تتصور جيداً قول ربك ومولاك: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ سورة الزخرف (٣٦). إن الروح التي تطير بالإنسان سعادة وأنساً وتسري إلى أرواح المؤمنين حباً وتأثيراً هي روح الصلة بالله وحين تتصل الروح بخالقها يكسوها من هيبته وإجلاله ويعيش حينها العبد أسمى وأعلى أنواع السعادة ويكون فعلاً ولياً لله يحارب اللهُ من حاربه ويحفظه من كل مكروه ويسوقه إلى كل معروف ويحبه أهل السماء ويوده أهل الأرض، وليس هناك عبادة بعد التوحيد لتوثيق الصلة بالله أعظم من الصلاة التي وسمها الله بصلته فإن شئت وثقّ وإن شئت دع، فإنما صلاحك وفلاحك في الدنيا والآخرة بصلاح صلاتك وفسادك بفسادها وسعادتك بسدادها وشقاوتك بنقصها وإهمالها، فطوبى ثم طوبي لمن وصل حبله بالله وسعى بخطى حثيثة لرضا مولاه وأجهد نفسه وبدنه في سبيل الله، وطوبى ثم طوبى. لمن عرف بالصلاة مبادرة وحفظاً لشروطها وأركانها وواجباتها وسننها ومحافظة على الخشوع فيها الذي هو روحها ولبها وثمرتها.

خمس بأجر خمسين

حين أسرى الله تعالى بنبيه صلوات الله وسلامه عليه في رحلة مباركة من بيت الله الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك الله فيه وحوله، أجتمع بالأنبياء بعد أن أحياهم الله تعالى وصلى بهم في المسجد الأقصى ورافقه جبريل عليه السلام في تلك الرحلة المباركة، ثم أخذ بيده فعرج به إلى السماء ، ثم ارتقى فرأى من آيات ربه الكبرى، وسجد لله رب العالمين، وفرض الله تعالى خمسين صلاة في اليوم والليلة، ومر في طريق العودة على موسى عليه الصلاة والسلام، فأخبره بما فرض الله تعالى على المسلمين من الصلوات الخمسين، فأشار عليه بطلب التخفيف من الله تعالى، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يتردد إلى الله تعالى ثم إلى موسى في طريق العودة، و في كل مرة يُخفف الله تعالى عنه حتى استقرت رحمة الله تعالى على خمس صلوات بأجر خمسين صلاة، وصعد به جبريل بعد ذلك إلى سدرة المنتهى ثم أدخله إلى الجنة فأراه ما فيها من النعيم المقيم، ثم عاد به بعد ذلك إلى مكة المكرمة في نفس الليلة. فيالها من عبادة مهمة يفرضها الله سبحانه على نبيه في السماء السابعة في هذه الرحلة العظيمة.

الصلاة حياة

فإن الصلاة هي اتصال دائم بالله تبارك و تعالى، حيث تتكرر في اليوم خمس مرات،يستمد منها المؤمن القوة من الله تعالى، فلا تسقط الصلاة عن المسلم العاقل البالغ بحال من الأحوال، ويؤديها وفق مقتضى الحال قائماً أو جالساً أو مستلقياً أو على جنب أو بحركات رأسه ولسانه إن تعذر غير ذلك، أو بعينييه إن عجز عن غيرها أو بقلبه إن عجزت جوارحه عن أدائها أو راكباً أو ماشياً ما استطاع إلى ذالك سبيلاً حتى لا تنقطع صلته بالله تبارك و تعالى لحظة من اللحظات طالما أنه يعي ذلك و يدركه، فالصلاة كما قال ﷺ : (خير موضوع فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر). وما من أحد يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين يقبل بقلبه وبوجهه عليها إلا وجبت له الجنة، ومن أعتز بالله أعزه الله ومن رجاه لم يخيب رجاه، فكيف إذا كان دائم الصلة بالله تعالى في أداء الصلوات المفروضة والإكثار من نوافل الصلاة.

غفران الذنوب

الصلاة عبادة تجعل قلب المؤمن معلق بالله يرجوه وحده ولا يخشى أحدا سواه ،يطرح ذله وفقره ببابه ويجعل حاجته وفاقته على أعتابه ويدرك يقيناً أنه في عبادة عظيمة يغفر الله بها السيئات ويمحو بها الزلات والهفوات ألم يقل نبينا ﷺ؟: (مَنْ توضَّأ كَما أُمِرَ، وصلّى كَما أُمِرَ: غُفِرَ له مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلٍ» أخرجَهُ النسائيُ وابنُ ماجَهَ. ألم يقل ﷺ: (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن، ما لم تغش الكبائر) رواه مسلم في صحيحه.

فقل لي بربك أيها المبارك أي مغفرة تغشى المصلي وأي رحمة تدركه وأي بركة تناله ،فهنيئاً لمن واضب وداوم على الصلاة ،هنيئاً لمن سار عمراً مديداً في غمام الرحمة والبركة والغفران، وطوبى لمن اغتسل من ذنوبه في يومه خمس مرات وفي أسبوعه بصلاة الجمعة وفي عامه بصلاة التراويح فاللهم لك الحمد. ولك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك أن شرعت لنا مانطهر به ذنوبنا ونزكي به أنفسنا.

سؤال فارس الأسبوع

س١/ اشتملت دعوة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام على عدة خصال منها:

١) إقام الصلاة.

٢) رعاية المحتاجين.

٣) الإكثار من الذرية.

س٢/ الصلاة في المسجد الحرام أجرها مضاعف فهي تعدل:

١) خمسمائة صلاة.

٢) ألف صلاة.

٣) مائة ألف صلاة.